تفسير إبن كثير

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن ، كقوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) [الإسراء : 23] وقال : (أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير) [لقمان : 14] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال هاهنا : (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) أي : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما .وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، أخبرني سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ، فلا آكل طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله . فامتنعت من الطعام والشراب ، حتى جعلوا يفتحون

فاها بالعصا ، ونزلت هذه الآية : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) الآية [العنكبوت : 8] .ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث شعبة بإسناده ، نحوه وأطول منه .(حملته أمه كرها) أي : قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبا ، من وحام وغشيان وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، (ووضعته كرها) أي : بمشقة أيضا من الطلق وشدته ، (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا)وقد استدل علي ، رضي االله عنه ، بهذه الآية مع التي في لقمان : (وفصاله في عامين) [لقمان : 14] ، وقوله : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) [البقرة : 233] ، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوي صحيح . ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة ، رضي االله عنهم .قال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن يزيد بن عبد االله بن قسيط ، عن بعجة بن عبد االله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة ، فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها ، فقالت : ما يبكيك ؟ ! فواالله ما التبس بي أحد من خلق االله غيره قط ، فيقضي االله في ما شاء . فلما أتي بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا

فأتاه ، فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماما لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له [علي] أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت االله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : ([يرضعن أولادهن] حولين كاملين) ، فلم نجده بقى إلا ستة أشهر ، قال : فقال عثمان : واالله ما فطنت لهذا ، علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، قال : فقال بعجة : فواالله ما الغراب بالغراب ، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه . فلما رآه أبوه قال : ابني إني واالله لا أشك فيه ، قال : وأبلاه االله بهذه القرحة قرحة الأكلة ، فما زالت تأكله حتى مات .رواه ابن أبي حاتم ، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله : (فأنا أول العابدين) [الزخرف : 81] .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا علي بن مسهر ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين ; لأن االله تعالى يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) (حتى إذا بلغ أشده) أي : قوي وشب وارتجل (وبلغ أربعين سنة) أي : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه . ويقال : إنه لا يتغير

غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين .قال أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين ، فخذ حذرك .وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد االله القواريري ، حدثنا عزرة بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلولي عنه وزادني قال : قال محمد بن عمرو بن عثمان ، عن عثمان ، عن النبي - صلى االله عليه وسلم - قال : " العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف االله حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه االله الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت االله حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر االله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه االله في أهل بيته ، وكتب في السماء أسير االله في أرضه " .وقد روي هذا من غير هذا الوجه ، وهو في مسند الإمام أحمد .وقد قال الحجاج بن عبد االله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق : تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركتها حياء من االله ، عز وجل .وما أحسن قول الشاعر :صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل : ابطل(قال رب أوزعني) أي : ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي

وأن أعمل صالحا ترضاه) أي : في المستقبل ، (وأصلح لي في ذريتي) أي : نسلي وعقبي ، (إني تبت إليك وإني من المسلمين) وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى االله ، عز وجل ، ويعزم عليها .وقد روى أبو داود في سننه ، عن ابن مسعود ، رضي االله عنه ، أن رسول االله - صلى االله عليه وسلم - كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد : " اللهم ، ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا ، وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها قابليها ، وأتممها علينا " .